

(27) الأنس بالله عز وجل



يقول ابن القيم- رحمه الله- : من فقد أنسه بِاللَّه بَين النَّاس ووجده فِي الْوحدَة فَهُوَ صَادِق ضَعِيف، وَمن وجده بَين النَّاس وفقده فِي الْخلْوَة فَهُوَ مَعْلُول، وَمن فَقده بَين النَّاس وَفِي الْخلْوَة فَهُوَ ميت مطرود، وَمن وجده فِي الْخلْوَة وَفِي النَّاس فَهُوَ الْمُحب الصَّادِق الْقوي فِي حَاله، وَمن كَانَ فَتحه فِي الْخلْوَة لم يكن مزيده إِلَّا مِنْهَا، وَمن كَانَ فَتحه بَيت النَّاس ونصحهم وإرشادهم كَانَ مزيده مَعَهم، وَمن كَانَ فَتحه فِي وُقُوفه مَعَ مُرَاد الله حَيْثُ أَقَامَهُ، وَفِي أَي شَيْء اسْتَعْملهُ كَانَ مزيده فِي خلوته، وَمَعَ النَّاس، فَأَشْرَف الْأَحْوَال أَن لَا تختَار لنَفسك حَالَة سوى مَا يختاره لَك ويقيمك فِيهِ فَكُن مَعَ مُرَاده مِنْك وَلَا تكن مَعَ مرادك مِنْهُ.



شرح الفائدة

معنى الأنس بالله

الأنس لغة: ضد الوحشة؛ فالإنسان قد يشعر بالوحشة إذا كان في مكان غريب، أو يترقّب شرًّا، أو يخاف أمرًا؛ وقد يطمئن إذا وجد من يشبهه أو يألفه؛ فيستريح حين يلقى شخصًا من بلده، أو يتحدث باللغة التي يعرفها، أو يرى من يشاركه مهنته واهتمامه.

ومن طبيعة الناس أنهم قد يستوحشون في الوحدة، ولا سيما إذا كانوا في مكان غريب؛ أما المؤمن فيأنس بالله عز وجل، ويجد في خلوته به نعمةً وراحة.

وليس المقصود أن يعتزل الناس أو يعيش وحيدًا، وإنما المقصود أن يكون له حالٌ مع الله وخلوةٌ يأنس فيها بذكره ودعائه وعبادته.

ومن ذلك ما جاء في الحديث في ذكر الرجل الذي ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه.

والأنس بالله هو: انشراح الصدر، واطمئنان القلب، وهدوء النفس، ونزول السكينة على العبد وهو يخلو بربه سبحانه وتعالى.

والقلب المعلّق بالله يأنس إذا استوحش، ويأمن إذا خاف.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ

مُهْتَدُونَ [الأنعام: 82]

وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم في هذه الآية بالشرك؛ فأهل التوحيد أحق الناس بالسكينة والطمأنينة.

والقلب يرتوى ويطمئن بذكر الله؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: (مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ)، رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فالذكر حياة القلب، سواء كان العبد منفردًا أو في وسط الناس.

ومن معاني الأنس بالله استشعار قرب الله من عبده على الوجه اللائق بجلاله، مع الإيمان بأنه سبحانه عليم بدعائه، مجيب له، رحيم به.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]. فإذا قلت: «يا رب»، فالله يسمع دعاءك، ولا يخفى عليه شيء من أمرك.

وهذا الاستشعار يزيد القلب أنسًا بالله؛ فيدعوه العبد وهو يرجو إجابته ويحسن الظن به، فاستحضار القلب هذا البر والإحسان واللطف: يوجب قربه من الرب سبحانه وتعالى، وقربه منه يوجب له الأنس، والأنس ثمرة الطاعة والمحبة؛ فكل

مطيع مستأنس وكل عاص مستوحش.

والأنس بالله شعور يمتزج بالهيبة والخشوع، يغمر كيان الإنسان كله مما يجعله يجد سعادته في خلوته، ولذته في وحدته، يناجي ربه.. يشكو همه إليه.. يشكره على نعمه.. ينعم بالدعاء له والثناء عليه، والتسبيح والتقديس له عز وجل، ويشعر بأن كل ما في الكون من مخلوقات تشترك معه في التسبيح لله عز وجل فيحس بأن هناك ألفة ومودة بينه وبين جميع المخلوقات في الكون.

ولا يشعر المؤمن المحب لله بالأنس في أوقات العبادة فقط؛ فإن فضل الله عليه عظيم حيث يفيض الله عليه بالأنس في أوقات الانشغال والاهتمام بأمور الحياة اليومية لأن الله يغمره ويملأ قلبه وكيانه كله.

فأصبح الأنس بالله يحيط به سواء في وقت الانشغال أو في وقت العبادة.

وفي هذا المعنى قال بعض العلماء: العارف بالله أنس بالله فاستوحش من غيره، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه، وذلّ لله فأعزه في خلقه.

وفي الدعاء المأثور :(أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أنسك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل شغل بغير طاعتك...).

فمن وجد الله ماذا فقد، ومن فقد الله ماذا وجد؟

ويقول الإمام ابن القيم في موضع آخر من الفوائد: إذ استغنى الناس بالدنيا

فاستغن أنت بالله، وإذا فرح الناس بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنس الناس بأحبائهم فأنس أنت بالله، وإذا ذهب الناس إلى ملوكهم وكبرائهم يسألونهم الرزق ويتوددون إليهم فتودد أنت إلى الله.

وقد ذكر ابن القيم أربعة أحوال للناس في هذا الموضوع فقال:

1- من فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف

معناه أن هذا الإنسان يعرف طريق الذكر والمناجاة إذا خلا بنفسه، لكنه لا يحفظ حضور قلبه إذا اختلط بالناس وشغلته أحوالهم.

فوصفه بالصدق لأنه يجد أصل المحبة والأنس في خلوته، ووصفه بالضعف لأنه لم يقدر بعدُ على حمل هذا المعنى إلى حياته الاجتماعية.

2- ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول

يشير إلى من يظهر نشاطًا في عمله الصالح حين يكون بين الناس، ثم يضعف ذكره وصلته بالله إذا خلا بنفسه، فعليه أن يتفقد نفسه فربما بقلبه مرض أو شائبة من رياء، والمقصود أن ينتبه صاحب هذا الحال ليفتش عن إخلاصه ويصلح خبيئة عمله.

ولا يدخل في ذلك من يجد في الجماعة عونًا على الطاعة، كمن تنشط همته في صلاة التراويح أو قراءة القرآن مع الآخرين.

فاجتماع الناس قد يعين بعضهم بعضًا على الخير، وهذا لا يكون رياءً بمجرده؛ وإنما العبرة بالنية، فمن نشط لأن الجماعة تعينه على طاعة الله فذلك خير، أما من لم ينشط إلا ليُرى ويُمدح، فليحذر من الرياء وليجاهد نفسه على الإخلاص.

3- ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود

هذا قلب خال من الأنس بالله فهو لا يستشعره لا في الخلوة ولا مع الناس ، وهذا وصف يراد به التحذير من قلب ميت أو استولت عليه الغفلة، فلا يجد حياة الذكر لا في صحبته ولا في انفراده، ويقارب هذا المعنى تشبيه النبي ﷺ الغافل عن ذكر الله بالميت.

4- ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله

يصف أكمل الأحوال المذكورة: قلب يذكر الله في خلوته، ويحفظ مراقبته له حين يعامل الناس ويعمل بينهم.

فهو لا يحتاج إلى جمهور ليتعبد، ولا يرى أن حضور الناس يقطع صلته بالله، وهذه القوة ليست قوة المشاعر فقط، بل ثبات في الإخلاص والطاعة وحسن الخلق.

وقد جعل النبي ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، وهو شاهد على شرف العبادة الخفية.



وفي المقابل، ورد في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) صححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

فالشريعة تجمع بين فضل الخلوة الصالحة وفضل نفع الناس والصبر عليهم، ولا تجعل أحدهما بديلًا مطلقًا عن الآخر.

ثم يقول ابن القيم: ومن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها.

الفتح هنا يُفهم على أنه تيسير أبواب الطاعة والفهم والذكر ورقة القلب؛ فمن وجد أن نفعه الأكبر في قيام الليل، أو تلاوة القرآن، أو الدعاء ومحاسبة النفس بعيدًا عن الضوضاء، فغالبًا يزداد قلبه صفاءً بما يلائم هذا الباب، مع بقاء حقوقه وواجباته.

ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم.

معناه أن بعض الناس ينفتح لهم باب الخير في التعليم والنصيحة والإصلاح وخدمة الخلق؛ فيزدادون إيمانًا وعلمًا وصبرًا من خلال أداء هذه الأعمال.

وقد كان معنا في مصر رجل كبير محب للعلم والعلماء ـ رحمة الله عليه ـ، إذا اجتمع الناس في مجلس، وكان حديثهم يدور حول المباريات أو الأسعار وأمور الدنيا، بدأ يحدّثهم عن خطبة الجمعة أو يذكر لهم حديثًا سمعه.



وكان يقول إن الناس تشغلهم الدنيا، فيحاول أن يجذبهم إلى ما ينفعهم ويذكّرهم بالله، وكان يقترح أن يذكر كل واحد فائدة استفادها من خطبة الجمعة.

وهكذا يمكن للإنسان أن يجعل مجالس الناس عامرة بالخير، من غير تكلف ولا استعلاء، ولا مانع أن تذكّر المرأة أخواتها بخيرٍ في مجلسهن، أو أن يفتح أحدٌ موضوعًا نافعًا وحديثًا طيبًا؛ فذلك من استصحاب معنى الأنس بالله في الحياة وبين الناس.

ومن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله حيث أقامه وفي أي شيء استعمله كان مزيده في خلوته ومع الناس.

بمعنى أنه يجمع بين الحالين: أن يعبد العبد الله في الخلوة، ويؤدي ما شرعه الله له بين الناس؛ فلا يجعل العبادة محصورة في مجال واحد، ولا يتخذ ذوقه الشخصي حجة لترك ما أوجبه الله عليه.

وقد يستحي بعض الناس أن يعرف الآخرون أنه مسلم، أو أن يروه وهو يصلي أو يقرأ القرآن.

والمؤمن يتعامل مع الله، لا مع أهواء الناس وأحكامهم؛ فالناس تختلف أذواقهم وأعرافهم، وقد يمدحك بعضهم اليوم ثم يذمك غدًا.

فلا ينبغي للمسلم أن يستحي من إظهار إسلامه أو صلاته أو ذكره لله، ما دام يفعل ذلك إخلاصًا لله ومن غير رياء، ويُظهر طاعته لأن الله أمر بها، ويترك ما



حرّم الله لأنه محرّم في دينه، لا طلبًا لمدح الناس ولا خوفًا من ذمهم.

ثم قال: كن مع مراده منك ولا تكن مع مرادك منه.

المراد أن يسأل العبد: ما الذي يطلبه الله مني شرعًا في هذا المقام؟

أأؤدي واجبًا، أم أبرّ والدًا، أم أتعلم علمًا نافعًا، أم أعمل لأكسب رزقًا حلالًا، أم أخلو بعبادة نافلة؟ ثم يقدّم ما أوجبه الله وشرعه على ما تميل إليه نفسه من حال مفضلة عندها.

فقد يميل الإنسان إلى الانقطاع لأنه أيسر عليه، لكن عليه حقوقًا لأهله أو عملًا نافعًا أو واجبًا لا يجوز إهماله.

وقد يميل آخر إلى الظهور والتعليم لأن ذلك يوافق طبعه أو يجلب له تقدير الناس، بينما حاجته في تلك المرحلة أن يصلح إخلاصه ويكثر من العمل الخفي.

الميزان ليس: أي الحالين أشعر فيه براحة أكبر؟

بل: أيهما موافق للحق والواجب والإخلاص في وضعي؟

ولا يعني قوله «حيث أقامه» أن كل واقع يعيشه الإنسان محبوب شرعًا أو أنه مأمور بالرضا بالمعصية والظلم؛ فالفرق قائم بين ما قدّره الله كونًا وبين ما أمر به شرعًا؛ فالعبد يصبر على ما لا يملك دفعه، ويعارض المعصية بما أمر الله به

من توبة وإنكار وإصلاح.

علامات الأنس بالله

من علامات الأنس بالله تعالى:

1. أن يكثر ذكره على لسان العبد، وأن يظهر أثر ذكر الله في حديثه وسلوكه، فيذكّر الناس بربهم من غير تكلف، ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره.
2. ومن علاماته أيضًا أن ينشط العبد للعبادة في خلوته؛ فيقرأ القرآن، ويدعو، ويذكر الله، ويقوم الليل بحسب استطاعته.
3. ومن علاماته أن يجد لذة الطاعة وحلاوة الإيمان؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) وحلاوة الإيمان يجدها القلب، كما يجد المرء حلاوة الطعام والشراب؛ فهي لذة باطنية لا تُدرك باللسان، وإنما يذوقها القلب حين يكرمه الله بالطاعة والمحبة والإخلاص.
4. ومن علامات الأنس بالله أن يحرص العبد على أن يحبّب الناس في الله ودينه، وقد يخلص الإنسان في رغبته في هداية الناس، لكنه ينصحهم بغلظة، أو يعاملهم باستعلاء، فينفرهم من الطاعة بدل أن يقربهم منها، فلا تُعامل الناس كأنك أعلى منهم، ولا تخاطبهم بتعالٍ، أو كأنك تحتكر الحق وهم يجهلونه، بل انصحهم برفق ورحمة، وراعِ أحوالهم، واقتدِ بهدي النبي صلى



الله عليه وسلم في دعوته. قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:159]

ويُروى في قصة إسلام أُسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما، حين لقيا مصعب بن عمير رضي الله عنه، أن أثر الإسلام بدا عليه قبل أن يتكلم، وهذا معنى جميل نتمنى أن نحققه: أن يرى الناس في أخلاق المسلم رحمة الإسلام وحلاوته ويسره، فيحبّبهم ذلك في الدين.

خاتمة

يربّي النص المسلم على ثلاث خصال متلازمة:

1. أن تكون له خلوة صادقة لا يراه فيها إلا الله.
2. وأن يحفظ ذكر الله وإخلاصه حين يخالط الناس.
3. وأن يختار من أحوال العبادة والعمل ما يوافق الحق والواجب في الموضع الذي هو فيه.

فلا يزكّي نفسه لمجرد أنه يحب الخلوة، ولا يطمئن إلى حاله لمجرد نشاطه أمام الناس، ولا يحكم على غيره بأوصاف النص.

بل يجعل الكلام بابًا لمحاسبة النفس:

هل لي نصيب من الذكر سرًا؟



وهل ينعكس ذلك على معاملتي للناس؟

وهل أطلب ما يرضي الله، أم أطلب الحال التي توافق رغبتي فقط؟

والأنس بالله ليس حالًا يقتصر على الخلوة، بل هو صلة تصحب المؤمن في خلوته وبين الناس، في عبادته ومعاملاته، وكلما ازداد العبد طاعةً وذكرًا لله، ازداد قلبه سكينةً وأنسًا، وكلما أصرّ على المعصية والغفلة، خشي على قلبه الوحشة والضيق.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الأنس به، وأن يحيي قلوبنا بذكره، وأن يجعلنا ممن يحبّبون الناس في دينه، ويعاملونهم بالرحمة والحكمة.